خلق الإنسان

دراسة علميّة قرآنيّة

الجزء الأول

من سلالة من طين

دكتور عبد الفتاح محمد طبة
أستاذ بكلية طب القاهرة

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٨

الاخراج الفنى : راجية حسين

تصميم الغلاف : سميرة المرصفى

مقـدمة

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هـدانا الله ٠

وبعـــد :

يمر العالم حاليا بمنعطف تاريخى خطير اذ تتهدده كارثة يمكن أن تقضى عليه قضاء كاملا ٠

اننى أزعم أن ما يسـمى الآن تقـدما وحضـارة ليس فى حقيقته الا انتكاسا ومرضا خطيرا ، صحيح أن سـكان الأرض من البشر بقيادة العلماء والتقنيين أنجزوا ما يشبه المعجزات من وسائل السفر والاتصالات : فاخترقوا الفضاء ، ووصلوا الى القمر ، واستمعوا الى موجات لاسـلكية على أبعاد ما كانت تخطر على بال ، وصحيح أنهم ملـكوا طاقات وقوى بلغت من الشدة حد امكانية قضائها على الحياة فى الأرض فى لحظات ، وصحيح أنهم توصـلوا الى أجهزة تكشـف ما وراء الحجب والأستار استعملت فى الطب وفى علاج الأمراض ، وصحيح أنهم نجحوا فى اجراء حسابات يتمونها فى دقائق بعد أن كانت تحتاج الى سنوات أو كانت فى حكم المستحيلات ، وصحيح أنهم نجحـوا فى انتـاج أنواع من التسلية غريبة ، وفى تخليق عقاقير شافية وأخرى مخدرة وغيرها سامة أو منشطة ، ونجح أطباء فى جراحات ينقـلون بها أنسجة وأعضـاء ، وصحيح أنهم استخرجوا من باطن الأرض ثروات كان من العسير معرفتها أو الوصول اليهـا ٠٠

ولكن ٠٠ ما قيمة ذلك كله اذا ما فشلوا في اسعاد الانسان وانقاذ نوعهم البشرى وكوكبهم من الفساد والدمار ؟؟!! ٠

تحسب مجموعة من الساسة والقادة أنهم اسـتطاعوا أن يخدعوا غيرهم من البشر حينما نجحوا فى أن يوقدوا فى بلاد حسبوها بعيدة عنهم نيران حروب وقلاقل وفتن ٠٠ يجربون فى أهلها أسلحة اخترعوها ، وحيلا علمية ونفسية ابتدعوها ، ويستنزفون بذلك ثرواتهم ، ويسخرونهم فى خدمتهم ، وفى تجاربهم ، ثم يلهونهم بوسائل تسلية وأعلام تغسل عقولهم

وتثير حميتهم فيتهافتون عليها متنازلين بذلك عن وعيهم وعن ثرواتهم وطاقاتهم وعن سعادتهم وأراضيهم . يحسب موقدو نيران الحروب والفتن أنهم نجحوا فى تجنيب أنفسهم وأقربائهم وأوطانهم ويلات الحروب والفقر والجوع حين جعلوا أهل بلاد ظنوها بعيدة وقوما اعتبروهم غرباء عنهم يدفعون التكاليف ويعانون الموت والمرض والمجاعات والكوارث ... أنهم يحسبون بذلك أنهم خدعوا الآخرين ، ولم يدركوا أنهم فى الحقيقة يخدعون أنفسهم وأنهم يفسدون ولا يصلحون ، وأنهم سيشربون الكأس التى ظنوا أنهم جعلوا غيرهم يشربونها .

« يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون * فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون * واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا انما نحن مصلحون * ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون * واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون » .

(البقرة ٩ ـ ١٣)

ان تقسيم أقاليم الأرض الى عالم أول وعالم ثان وعالم ثالث تقسيم خادع مضل .

وأن ما تسمى بالحروب الباردة أو الصراعات والعداوات بين العالم الرأسمالى والعالم الاشتراكى كلها أوهام واختلاق لأن المعركة فى الحقيقة معركة بين الخير والشر ، أو بين الحق والباطل . مثيرو الصراع من الفريقين كلهم من جنود الشر والباطل .

انفاق أموال الأرض وثرواتها ، وتوجيهها نحو غزو الفضاء وتهديد أمن الآخرين وتخويفهم وردعهم .. سرقة لهذه الثروات وحرمان لأهل الأرض منها .

ان تكاليف برنامج حرب الفضاء لأحد الدول الكبرى يكفى لاشباع جميع سكان الأرض وضمان وقايتهم أو علاجهم وايوائهم واسعادهم واصلاح أخلاقهم وصحتهم النفسية والعقلية لشعورهم حينذاك بالأمن وبالاخوة الانسانية .

نسى موقدو نار الحروب والفتن صناع القنابل وسفن الفضاء أنهم يعيشون مع سكان العالم الذى يصارعونه ومع سكان العالم الثالث فى كوكب واحد . ان خطأ واحدا غير مقصود أو نوبة جنون مفاجىء تنتاب

انسانا واحدا يمكن أن تدفعه الى تفجير حرب ذرية · ان تفجيرا ذريا غير محسوب يمكن أن يذيب ثلوج أحد القطبين فيغرق معظم اليابسة أو يقضى على كوكب الأرض كله أو على أحيائه وسكانه كما فعل الطوفان من قبل مع قوم نوح ·

ليس هناك انسان معصوم من الخطأ أو النسيان أو الجهل ، والا فكيف انفجر صاروخ رواد الفضاء ، وكيف غرقت التيتانيك ، وكيف حدثت كارثة تشرنوبل ، وكيف انتشر الايدز ، وكيف ثقبت طبقة الأوزون المحيطة بالأرض ، وكيف تغير المناخ فى العالم وأصيب بالجفاف لسنوات عديدة · تعلمنا من دراسات الطب قانونا اسمه قانون الانذار ، وذكرته الكتب السماوية بما يوحى بأنه قانون عام · ينذر الناس أولا بكارثة خفيفة أو بعذاب طفيف أو بدخان ما ، ويكون علاج الكارثة أو الخلاص من العذاب أو اطفاء النار أمورا ممكنة ، فاذا ما قام بها الناس استفادوا وتعلموا ، وأما اذا تجاهلها المنذرون أصابتهم الكارثة الماحقة التى تقضى عليهم قضاء كليا · لا شك ـ اذن ـ أن انذار الله للناس وللمرضى بالنذر الأولى القابلة للاصلاح والعلاج يكون من مظاهر الرحمة الالهية ـ وما أكثر رحمات الله ـ ويصف الله ذاته فى الآية ٣ من سورة الدخان بقوله : « ··· **انا كنا منذرين** » ، ويقول فى سورة السجدة « **ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون (٢١)** » ·

من العيوب الكبرى فى الحضارة المعاصرة ـ المسماة بالحضارة المسيحية الغربية ؟؟!! ـ تبنيها لأفكار خاطئة منها :

أن ثمة تناقضا بين العقل والايمان ،

وأن ثمة عداء بين العلم والدين ·

ونتجت عن هذه الأفكار مبادىء خطيرة عند بعض الناس أفسدت اعمالهم ومعاملاتهم · من هذه المبادىء ما تعتبره جميع الأديان كفرا بها والحادا ··· مثل :

١ ـ لا وجود لاله رقيب حفيظ ،

٢ ـ لا بعث ولا آخرة ولا حساب ،

٣ ـ ليس الناس نوعا واحدا من أب واحد ومن أصل واحد وصائرين حتما الى مصير واحد ·

من نظرياتهم المفتراة أن الانسان الذى تطور عن حيوان فى

نياندرتال (أو بلتدوان) فى أوروبا غير الانسان الذى تطور عن حيوان آخر فى أفريقيا ، وكلاهما غير الانسان الذى تطور عن حيوان ثالث فى جاوا والصين · يكون منطقيا عند هؤلاء أن يكون لكل نوع من الناس ذوى الأصول المختلفة فى البلاد المختلفة آلهة مختلفة ، وأن الآلهة يمكن أن يدافع كل منهم عن مربوبيه وعبيده اذا ما اختلفوا وتعاركوا · هكذا علمتهم الأساطير الاغريقية عن آلهة الأوليمب فاستساغوها وسكنت فى وعيهم ولو لا شعوريا · كثير من الساسة والقادة وعامة الناس فى الحضارة الغربية يتجاهلون الحقائق التى نزلت بها الأديان ظنا منهم أن العقل لا يقبلها وأن العلم لا يؤيدها من كثرة ما سمعوا من نظريات وفروض من علماء شهروهم كداروين وأمثاله ، بينما يستسيغون أساطير الاغريق من كثرة ما قرأوها ورددوها فى أشعارهم وتمثيلياتهم · بهذا بنوا حياتهم على فروض ونظريات وأساطير وظنون ·

ولكن كيف انزلق سكان أوروبا من الايمان القوى فى العصور الوسطى الى هذا الجحود والالحاد فى العصور الحديثة ؟؟!! ·

فى أيام سوداء من أيام التاريخ ···· دفع الظلم القاسى والتعذيب الفاجر بعض الناس الى أن يكرهوا مظلة الأديان الالهية والعلم الصحيح فيبتعدوا عنها لاجئين الى وثنية الاغريق والرومان والى ما سموه بالآداب الانسانية (كنقيض للآداب الالهية) · حدث ذلك مرتين على الأقل فى تاريخ أوروبا :

كانت المرة الأولى حينما رجع الناس بعد الحروب الصليبية من الشرق معجبين بعقائد الشرقيين وحكمتهم فأرادوا تقليدهم ··· فاتهموا بالهرطقة ···· وحرقوا أحياء آلافا بعد آلاف ···· وصودرت أملاكهم وأموالهم أو عذبوا عذابا فظيعا · اتجه الناس عندئذ الى مراجع الحضارة الاغريقية القديمة ورضى بذلك الذين اضطهدوهم · كان هذا الانتكاس الى الحضارة الوثنية القديمة أساس ما عرف بعد ذلك باسم « عصر النهضة » ·

أما المرة الثانية فكانت بعد حروب الاصلاح الدينى وبعد النهضة العلمية فى القرن السابع عشر واشتعلت نيران اضطهاد رجال الكنيسة للعلماء فهرب المفكرون الأحرار والعلماء الى آداب وفلسفات حضارة الاغريق وراج مرة أخرى الاتجاه الانسانى · كان هذا العداء وذلك الاتجاه أساس ما سمى بعصر التنوير فى القرن الثامن عشر والذى ما لبث أن قاد الى الثورة الفرنسية والى القرن العنيف الخطير المسمى بالقرن

التاسع عشر ، كان ذلك القرن هو عصر الفصام بين العلم والكنيسة والخصومة بين الدنيا والدين والتي أدت الى العنف والعدوان والاستعمار وهى الاتجاهات التى استخدمت الفلاسفة والعلماء لتبريرها وتزيينها . وكان على قمة هؤلاء نيتشه وفختة وداروين وهكسلى وفرويد ومن الاقتصاديين آدم سميث وماركس وأنجلز . لقد تخلص الأثرياء الأقوياء من قيود الكنيسة ورقابة الدين وسيادة النبلاء القدامى وتملكهم الطمع والعنف والأحقاد واستكبار ما سمى بالثورة التجارية والصناعية وبها غزوا العالم ليسودوه ويسرقوه ، وليفتتوه تحت اسم القوميات والتمايز العنصرى . ووضعت الخطط الجهنمية لالتهام العالم وتدميره .

أنه ليبدو حقا أن العلم الناقص القليل قد يقتل الايمان ويقود الى الشك والالحاد ، ذلك أن الايمان بغير دليل مقنع يرضى العقل والقلب يكون كشجرة ذات جذور ضعيفة لا تستطيع مقاومة العواصف والأعاصير . لكن العلم الكثير المبنى على مشاهدات وتجارب يقود الى ايمان قوى لا يهتز ولا يرتاب . العلم الحديث يساعدنا فى اثبات المبادىء والحقائق التى نزلت بها الأديان ويزيل ما لحق بها من انحراف وتشويه فترجع سوية قوية الجذور ثابتة فى عقول الناس وقلوبهم فتردع أهواءهم وتسمو بأخلاقهم فوق التنافس البغيض والصراع القاتل المفسد ، وفوق التفاهات العاجلة المؤقتة .

الدورات الكونية ـ مثلا ـ تثبت أحقية البعث وملكية الحياة لرب واحد فى الكون كله .. وان لم يره الناس .

مشاهدة بويضة واحدة تحت المجهر وهى تنقسم ، ثم تتبعها حتى تصير مخلوقا يتكون من ملايين الملايين من الخلايا ثم تجدد هذه الخلايا وتعويضها بملايين الملايين الأخرى على مدى عمر هذا الكائن (وليكن الانسان) تكفى لتقنع الشاك الملحد بأن سكان العالم من البشر منذ نشأته وحتى ما لا نهاية يمكن أن يكونوا من أصل واحد . بل لابد أن يكونوا من أصل واحد تبعا لقوانين الوراثة والهندسة الوراثية .

اليقين من وحدة الجنس البشرى جدير بأن يعين الناس على الحب والتسامح والتكافل متخذين من الجسم الانسانى الذى خلقه الله مثلا يحتذى . اختلاف الألوان والأشكال بين الناس ، واختلاف الطباع لا يعنيان اختلافهم فى الأصل وأنهم أنواع مختلفة . يستطيع العالم أن يرى بعينيه كيف تتغير أشكال الخلايا ذات الأصل الواحد لتتوائم مع وظائفها المختلفة ، وهى تختلف فى الوظائف لتتكامل وتتعاون .

أمثال هذه المباحث التى تشير الى توافق حقائق العلم مع حقـــائق الدين ستكون مما نهتم به فى هذا الكتاب ٠

اختلاف أديان البشر على الأرض لا يعزى الى اختلاف أنواع البشر ، ولا يعزى الى تعدد الآلهة ، كما أنه ليس مبررا للصراع والقتـــال بين الناس ٠ اختلاف أديان البشر شبيه باختلاف المقررات الدراسية لطلبة الصفوف المختلفة ٠ طلبة الصف الأول لهم مقرر يصلح لهم ، وطلبـة الصفوف الأعلى لهم مقرراتهم ، وطلبة الجامعة لهم مقرر آخر وهكذا ٠

الرسل اذن يتتابعون على البشرية كما يتتابع المدرسون على تلميذ يتقدم به العمر وتترقى ملكاته المدركة العاقلة ٠ التلميذ هنا هو النوع البشرى ككل ٠ ان آخر الكتب السماوية هو القرآن ، ويجب أن ننظر اليه على هذا الأساس ، وليس على أساس أنه منافس أو محطم يلغى ويناقض الكتب الأخرى ٠ ان جوهر الأديان جميعها واحد ، وانما تكون الاختلافات بينها في التفاصيل ، فاذا حدثت تشويهات غير معقولة فهى تزييف أو اضافات من البشر ٠

لم يكن الناس فى قديم الزمان على شىء من العـــلم ، وكانوا فى طفولتهم العقلية ٠ الطفل كائن حسى غير عقلى تبهره العجائب التى لا يجد لها تفسيرا ٠ لهذا كان الاعجاز والاقناع حسيا فى الأديان الأولى ٠

أما الاعجاز والاقنـــاع فى القرآن فعلمى وعقلى ، وهو لا يخشى ولا يعادى العقل والعلم ٠ والقرآن يقدم المشاهد الطبيعية والمظاهر الكونية كآيات لله تثبت وجوده وتبين صفاته وتحمل تعاليمه وبيانه للنـــاس عما هو حق وعما هو خير ، وعن قوانين الوجود والسلوك ٠ لهذا يأمر القرآن أتباعه بأن ينظروا فى كيفية خلقهم وكيفيات خلق الســماوات والأرض وغير ذلك من مشاهد الكون ويدعوهم الى دراستها وتفسيرها ٠

وكما أن مشاهد الكون آيات لله تقول علما يعرف بواسطة الدرس والبحث والاستقراء ، كذلك تكون آيات الكتاب المنزل آيات لله ٠٠ وكأنها التعليمات التى تقدمها الشركة الصانعة لجهاز أو آلة ليقرأها وليستنير بها مستعمل الجهاز ٠

كون هذا الكتاب عربيا يجب ألا يثير حساسيات عند أهل اللغات الأخرى ، فكثير من آيات الكتاب لا يظهر اعجازها ، ولا تعرف حقيقـة مضامينها الا اذا قرئت باللغة العربية ٠ لا تبدى بعض الآيات معانيها فى كل عصر ولا لكل الناس ٠ أن بعض آيات خلق الانسان ــ مثلا ــ

لا تبدى بعض أسرارها ومعانيها الخفية الا لمن درس عمليات خلق الانسان وشاهدها وخبرها وتبينت له بعد اكتشاف المجهر ـ مثلا ـ ، والمجهر لم يستعمل فى هذه الدراسة الا فى القرن العشرين · هكذا لا تنفد أسرار القرآن أو معانيه أو اعجازاته فهى تنتظر الانسان المناسب فى الوقت المناسب لتبوح له ببعض معانيها · لهذا يقول الرسول عن القرآن أنه لا تبلى جدته · ولهذا منع المسلمون من ترجمة القرآن ، فالترجمة قد تغير المعنى الخفى على المترجم ، ومن ثم تعتبر تشويها وتزييفا فيه ·

يجب أن يعتبر هذا الكتاب بلغته العربية كنزا للانسانية كلها ويتحتم على الناس أن يحرصوا على بقائه هكذا عربيا · ألا يعتبر البشر لوحة أصلية رسمها فنان مثل ليوناردو دافنشى أو فان جوخ أو رينوار أو رافاييل كنزا للبشرية كلها ، وأن صورة تقليدية لها لا يمكن أن تساويها · أن ترجمة الكتب السماوية التى سبقت القرآن كالتوراة والانجيل غيرت معانيها بدليل اختلاف معانى الترجمات المختلفة فى اللغات المختلفة · لهذا تكفل الله بحفظ القرآن كما تنص على ذلك الآية التاسعة من سورة الحجر حيث تقول :

« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »

والواقع يثبت اعجازا فى هذا القول الكريم ، فلازال المصحف الأول الذى جمعه أبو بكر وحفظ عند حفصة زوج النبى صلى الله عليه وسلم وابنة عمر بن الخطاب ، والذى نسخ منه عثمان نسخا بعثها الى أرجاء العالم الاسلامى واحتفظ بنسخة منها ـ أقول لازال هذا المصحف محفوظا حتى الآن وعليه دم عثمان ليشهد بأنه يتطابق مع المصاحف التى تطبع منها ملايين النسخ كل عام ·· لا يختلف مصحف عن آخر الا فى حسن الخط ونوع الورق وفى التجليد والتزيين · ولم يكتف المسلمون بحفظ القرآن ككتاب مسطور وانما حفظوه أيضا ككتاب مقروء · يقرأ القرآن الآن فى مده وغنه وادغاماته ووصلاته وسكناته كما كان يقرأ فى عهد الرسول باللهجات التى كانت معروفة فى عهده ووافق عليها ـ ويهتم المسلمون بأن تتناقل أجيالهم القراءة جيلا بعد جيل ·

هل هناك من يدلنا على التوراة الاولى بلغتها الأصلية أو على الانجيل بلغته الأصلية · ان ما أصاب التوراة من أعداء التوراة ، وما أصاب الانجيل من أعداء الانجيل ليحزن كل منصف ، ولم يكن نكبة أصابت اليهود والمسيحيين وحدهم ولكنها أصابت البشر جميعا ·

لم يعد أمام البشر خيار :

فالكتاب السماوى الصحيح المتاح لهم هو القرآن وحده ـ وهو كنز للانسانية كلها مباح لكل من يريد الاغتراف منـــه من جميع الأجناس والبلاد فى جميع الأزمان ٠

من واجبات ورثة أى كتاب سماوى أن يحفظوه كأمانة غالية فان الله استحفظهم عليه ٠

الحفاظ على الكتاب لا يعنى فقط حفظه ككتاب مسطور ولا ككتاب يقرأ كما نزل بألفاظه ولغته الأصلية ، وانما الحفاظ عليه يشمل تجسيد تعاليمه وأوامره كأعمال ومعاملات وســـلوك ، بغير كسل ولا تزييف ولا انخداع ٠ انه لمن المؤسف حقا أن اليهود والنصارى إستحفظوا على كتبهم فضيعوها ٠ وأنه لمن المؤسف أيضا أن المسلمين لم يحافظوا على كتابهم الا لمدى محدود ولفترات قليلة ٠

من العجيب حقا أن الفرد أو المجتمع يلقى جزاء أمانته وحفظه للكتاب كما يلقى جزاء اهماله وتضييعه للكتاب فى الدنيا وليس فقط فى الآخرة ٠

الفرد الذى يتمعن فى القرآن ويتدبره ويقرأه متذوقا موسيقيته وبلاغته ومعانيه يجد لذة ومتعة لا تساويها متعة أى موسيقى أو منظر طبيعى أو لوحة فنية بالاضافة الى ما يشعر به من طمأنينة وأمن وانفتاح على أفكار رائعة عجيبة ٠ لا يشعر بالموسيقية والبلاغة والمعانى الا من يقرأه عربيا ويتقن العربية ٠ الحفاظ على الكتاب ـ اذن ـ يشمل الحفاظ على لغته واتقانها ٠ أننى أؤكد أن مئات الملايين من المسلمين فى الهند وباكستان وبنجلاديش والصين وتركيا وروســيا وأمريكا وأوربا الذين لا يقرأون القرآن بالعربية يخسرون كثيرا وان كانوا يكسبون بقـــدر حفاظهم على تعاليم الكتاب وأوامره وحكمته ٠

من أوامر الكتاب لمتبعيه أن يتعلموا وأن يعملوا بما علموا ، وسوف يجد العلماء العاملون جزاء كريما فى حياتهم وتعظيما وحبا من معاصريهم ومعاشريهم ، وسيبقى لهم ذكر حسن عبر الأجيال بالاضافة الى تكريم الله لهم ٠

والمجتمع أو الأمة التى تحافظ على تعـــاليم الكتـــاب وأوامره فى معاملاتهم وسلوكهم بين بعضهم البعض ، وبينهـــم وبين الشعوب والأمم الأخرى سيجدون جزاءهم سريعا عزة وكرامة وغنى وكرما وحبا وتقدما وحضارة ٠ هكذا تحدثنا التجربة التاريخية فى فترة انتشار الاسلام الى

أرجاء العالم . كان أهل تلك الأرجاء يرحبون بالمسلمين القادمين اليهم تجارا أو فاتحين ، وسرعان ما يذوب القادمون فى المضيفين ، ويرتفعون جميعا وان تباينت أديانهم وألوانهم وعروقهم . لم يفرق التاريخ الاسلامى بين عربى وغير عربى فمعظم العلماء فى الاسلام كانوا من غير العرب مثل سيبويه والزمخشرى وابن سينا ، وسوف نجد أسماءهم التى تنسب الى بلادهم تمجدهم بعلمهم كما تمجد بلادهم عبر الأزمان . من هذه الأسماء مثلا البخارى والبيضاوى والشيرازى والأفغانى والسيوطى .

أما حين أهمل المسلمون ـ عربا كانوا أو غير عرب ـ تعاليم دينهم وأوامر ربهم وسنة رسوله فأنهم زلوا وضعفوا وهانوا وفقدوا كل مقومات الكرامة والمجد . الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تحذر المسلمين من فتنة المال والجاه ، ومن الترف والعجز والكسل ، ومن الغفلة والجهل . وتحذرهم من التفرق وقتل بعضهم البعض ، وتحذرهم من الاستكبار والظلم ومجافاة العدل والميزان ، وتحذرهم من الخمر والميسر والفحشاء والربا . حينما نستعيد التاريخ الاسلامى لنرى كيف فقدت دول الاسلام مجدها فى عصر العباسيين ، وفى الأندلس ، وفى تركيا فسنجد دائما العوامل المشتركة المهلكة مثل :

١ ـ الترف وما يجره من كسل وجهل وضعف وانحلال ، واقبال على متع الدنيا وملذات الجسد .

٢ ـ التفرق والتفتت ، والاعتزاز بالعرقية والعصبية والشعوبية ، وصراع المذاهب والنحل .

٣ ـ الظلم والاستكبار بالمال والجاه ، والعدوان ، واهمال الصدقة والتكافل الاجتماعى ، ونسيان تقوى الله وحساب الآخرة .

معانى الحفاظ على الكتاب السماوى واضحة ـ والكتاب يعرض تعاليمه على البشر جميعا فى كل أنحاء الأرض وفى جميع الأزمان ليكونوا من أهله ـ وسوف يسعهم جميعا كرم الله وعنايته ، فكنوزه لا تنفد ، وأرزاقه ونعمه لا تعد ولا تحصى .

من الأفكار الشائعة أن عملية خلق الانسان تبدأ باخصاب بويضة من أمه وتتم بولادته . هذه فكرة فيها من النقص والخطأ كثير . عمليات خلق الانسان تبدأ قبل ذلك بآماد طويلة كما أنها تستمر بعد الولادة أى طوال حياته على الأرض . لعل فترة ما بعد الولادة هى أهم فترات الخلق ليس فقط لأنها فترة النمو الجسمانى ، ولكن لأنها كذلك فترة النضج

النفسى والوظيفى ، ثم أنها الفترة التى يصير فيها الفرد مسئولا عن نفسه وعن تعديل فطرته وتغيير طباعه • أننا لا نغالى حين نقول أن الفرد فيها يشترك ويجتهد فى عملية الخلق ـ خلق نفسه وصناعتها بشرط أن يتحمل المسئولية ويجنى الحصاد •

يمكن تقسيم عمليات خلق الانسان الى ثلاثة أطوار متباينة هى :

١ ـ طور التمهيد ،

٢ ـ طور الحمل والتصوير الجنينى ،

٣ ـ طور الوجود الأرضى •

ولا يصح أن نضع حدودا فاصلة حادة بين هـــذه الأطوار ، فهى تتداخل وتتكامل •

الجزء الأول من هذا الكتاب يعنى بدراسة الطور الأول ، وسنترك دراسة الطورين الآخرين لجزءين منفصلين نرجو عون الله فى اتمامهما •

دكتور عبد الفتاح محمد طيرة

الباب الأول

« فلينظر الانسان مم خلق »

« سورة الطارق ٥ »

« فلينظر الانسان مم خلق »

تتضمن هذه الآية القرآنيـــة أمرا الهيا كريما موجها للانسان · والأمر الالهى عنـد المسـلمين واجب الطـاعة ، وهو تشريع وفرض ، ولكنه قد يكون فرض عين يجب على كل مسـلم أن يقوم به ، أو يكون فرض كفاية يكلف به بعض المسلمين ·· لقدرتهم عليه ، وان كان يقصد به نفعهم جميعا ·

من الواضح أن هذا الأمر فرض كفـاية ، فكيف يعرف المسـلم أنه واحد من المكلفين به ؟

الأمر الالهى **(فلينظر الانسان مم خلق)** جاء فى سياق سورة من سور القرآن ·· من الممكن أن تقدم السورة أو آيات أخرى من القرآن عونا يحدد مواصفات المكلف بالنظر ·

الآيتان التاليتان لآية الأمر ونصهما : **(خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب)** تحددانه بأنه ذلك الذى يسر له أن يعـرف الصلب ، ويعرف الترائب ، وأن ينظر بينهما ، وأن يعرف أيضا كل ماء دافق فى جسم الانسان ، فى كل وقت من أوقات عمره ، منذ بدء نشأته حتى مماته ·

انه ـ اذن ـ واحد من العلماء ، علماء الجراحة والطب ، ودراسات الأحياء والتشريح ، الذين يدرسون خطوات خلق الانســـان من عناصره ومكوناته الأولى ·

تمضى الســـورة تبين له الغرض من النظر ، وتعين له الغـــاية المستهدفة · انه ليس غرضا واحدا بل هما غرضان ، وربما ثلاثة :

الغرض الأول : أن يعرف أن كل نفس عليهـــا حافظ ، فيثبت حدوث الحفظ ، ويتبين كيفيته ، ويعرف من هو الحافظ ؟! ليس الحافظ الا الخالق ، لأن الحفظ جزء من الخلق ، وليس هناك خالق غير الله ·

(الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل) الزمر ٦٢ ·

أحد الأغراض ـ اذن ـ هو : التعريف بالله • من الأغراض التى تستهدفها بعض آيات القرآن تعريف الناس بربهم من خـــلال ادراكهم لآياته فى الكون ، ونعمه عليهم ، وعنايته بهم ، مثل :

« ان الله فالق الحب والنوى يخـرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى • ذلكم الله ، فانى تؤفكون ؟! » الأنعام ٩٥ •

الغرض الثانى : تبينه آيات جـاءت بعد آية الصلب والترائب ، ونصها : **« انه على رجعه لقادر • يوم تبلى السرائر ••• ؟ •**

ان على الدارس اذن أن يثبت من خلال دراسة خلق الانسان امكانية البعث بتوضيح سهولة وتكرار عمليات الخلق ، واظهار ما فيها من دلائل قدرة الله ، وحتمية عدالته ، وكمال تقديره • الآيات فى ذلك تتوافق مع آيات كثيرة أخرى فى القرآن مثل :

« •••• قال من يحيى العظام وهى رميم ؟ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا •••• » يس ٧٨ ـ ٨٠ •

وسوف ترى أن دارس خلق الانسان بالنظر يشاهد كيفية انشاء العظـام خطوة خطوة ، وكيف يضـمن الخالق فى الخضرة نارا وطاقة وثورا ••• مما سنفصله فى أبواب الكتاب •

الغرض الثالث : من الممكن أن يكون غرض ثالث مقصودا ، تتضمنه آيات فى السورة هى :

(انه لقول فصـل : وما هو بالهزل • انهم يكيدون كيدا • وأكيد كيدا * فمهل الكافرين أمهلهم رويدا) •

يعود الضمير فى « انه » على القرآن والرسالة وما فيه من انذار أو توضيح ، كما هو الحال فى كلمة « النبأ » فى سورة « عم يتساءلون * عن النبأ العظيم » كما فصل المفسرون • أحد أغراض دراسة خلق الإنسان ـ إذن ـ يمكن أن يكون اثبات صدق القرآن ، وصدق الرسول فى أنه انما يبلغ رسالة ربه ، وأنه لا ينطق عن الهوى •

تعترض الدارس الباحث مشاكل كثيرة ، منها مثلا :

المكلف بالنظر فى « **مم خلق الانسان** » لايلقى مجرد نظرة وينتهى الأمر ، وانما هو يبحث أمورا يدرسها ، أى يتبين أعماقهـــا ويستخرج خباياها ، فتتكشف له البراهين على صحتها وتتكشف له كنوز أخرى •

وهو اذ يفعل ذلك يصير عالما بها ، متيقنا منها ، مؤمنا بمضامينها ، متصفا بآثار العلم والايمان . يقول الله تعالى « ... **انما يخشى الله من عباده العلماء** ... » فاطر ٢٨

وفعلا ، تنتابه خشية من الله ويستقيم على طريقه قدر طاقته ... ويرتجف قلبه خوفا وخشية من قوله تعالى (**ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون * الا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم**) البقرة ١٥٩ ـ ١٦٠

وينتابه حزن شديد خاصة وهو يحسب أنه أصبح ممن يشملهم قوله تعالى : (.... **قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون**) وقوله (.... **قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون**) الأنعام ٩٧ ، ٩٨

لقد أصبح بمقتضى هذه الآيات القرآنية يحمل رسالة وأمانة ، ... ويالها من أمانة ثقيلة !!!

من الطبيعي أن يتردد في القيام بما تقتضيه هذه الأمانة اشفاقا على نفسه من ثقلها : عالم في العلوم الكونية يرى نفسه مكلفا ببعض مهام الدعوة . ان هذا يستلزم منه جهدا عظيما للاطلاع على علوم القرآن والدين ، وليس هذا بالأمر العسير ، بل هو واجب كل مسلم متعلم أو مثقف ، فالجمع بين علوم الدنيا وعلوم الدين واجب في الاسلام . اذن أين المشكلة ؟ وأين المحنة والصعوبة ؟!!

المحنة والفتنة تتركز في .... أنهم لن يتركوه يفعل ذلك دون أن ينغصوا عليه حياته . ويثيروا في وجهه المشاكل ، بسبب فكرة مبتدعة دخيلة على الاسلام أصبحت في عصره مبدأ تعتنقه فئات كثيرة من الناس . تلك البدعة هي « **بدعة الفصل بين علوم الدنيا وعلوم الدين** » .

الى قطع هذه الصلة بين الدين والدنيا تعزى كل مفاسد الحضارة المعاصرة ، والتي بسببه أصبحت حضارة مادية عوراء عرجاء أصابت الانسان بانفصام رهيب وكأنها قطيعة بين الجسد والقلب .. أمر عجيب وفتنة ملأت عالمنا بظلمات بعضها فوق بعض . ان معناها أن يقول أشخاص مسلمون : « نحن من رجال الدنيا وليس الدين مما نهتم به . لمن اذن نزلت الرسالات والأوامر والتشريعات القرآنية ؟!!

ألم تنزل للناس كافة بنص آيات مثل :

(يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون)
البقرة ٢١ ، ٢٢

من أين اذن أتى هذا المبدأ الدخيل على العالم الاسلامى ؟؟!! انه أحد مفاهيم وأسس الحضارة الغربية التى غزت عالمنا ، مع أنه لم يظهر فى أوروبا الا بسبب ظروف وملابسات خاصة بها لانشترك فيها معهم ٠

حدث الفصل بين اهتمامات الدين وشؤون الدنيا كصيغة هدنة أو مصالحة بين قوتين سيطرتا على أوروبا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر اثر حروب فاجرة شرسة استمرت قرونا قبل ذلك ٠

القوتان هما :

١ ــ قوة الكنيسة الكاثوليكية التى أنشأها قسطنطين بن دقلديانوس الرومانى سنة ٣١٥ ميلادية ٠

٢ ــ القوة الثانية كانت طبقة جديدة هى طبقة الأثرياء العائدين بثروات كبيرة من البلاد المستكشفة والمستعمرة كنتيجة لما سمى بالثورة التجارية . كانت هذه الطبقة ــ في حقيقتها ــ حلفا جمع كل أعداء الكنيسة الكاثوليكية وهم : (أ) البروتستنت ، (ب) العلماء ، (ج) اليهود ٠ كانت كل فئة من هذه الفئات الثلاث تحمل ثأرا ضد الكنيسة وتراثا من الحقد والعداء والرغبة فى الانتقام ٠ كان اليهود سدنة المال والمادية ، وأساطين التجارة ، وأرباب الفتن والمكر ، وموقدى الحروب الذين يتقنون التخفى وراء الآخرين مع تحريكهم واستغلالهم كما يشاءون ، ولقد حركوا الفئتين الأخريين ، وكانوا هم أصحاب فكرة قطع الصلة بين عالمهم الدنيوى المادى ، وبين دين لايعنيهم أمره فى شىء بل أنهم يريدون افساده وافساد كل دين آخر ، وكان ذلك انتقاما لمذابح اليهود فى أسبانيا فى نهاية القرن الخامس عشر وكل القرن السادس عشر ٠ أما الحروب بين الكاثوليكية والبروتستنتية والتى عرفت باسم حروب الاصلاح الدينى ومذابحها فهى أشهر من أن يشار اليها ٠ كذلك كانت عداوة الكنيسة لرجال العلم ــ وعلى رأسهم كوبرنيكوس وجاليليو عداوة مبدأية ٠

كون هذا المبدأ دخيلا خطيرا على الاسلام كدين وأمة ٠٠ تؤكده نظرات بسيطة الى الآيات القرآنية التى تتحدث عن آيات الكون أو الآفاق ٠٠٠ وتوظفها لخدمة العقيدة والتقوى والايمان بالله واليوم الآخر ،

والتزام حدود شرع الله . رأينا أمثلة لهذا التوظيف فى الآيات التى أشرنا اليها آنفا ، كما سنراه كثيرا جدا فى الفصول القادمة . هناك أيضا آيات تبين أن التقوى وطاعة الله هى الطريق الى سعادة الدنيا وعزها بالاضافة الى نعيم الآخرة ، وهناك أيضا آيات تبين أن الترف فى الدنيا والاستكبار فيها بغير حق ـ وهي أمور ينهى الاسلام عنها ـ تقود الى هلاك وانحلال كل أمة وضياع دنياها ودينها .

انه لأمر مفجع أن يكون تاريخنا فى الشرق والغرب أوضح شاهد ودليل على تلك الحقائق ، ومع ذلك يصر بعضنا على استيراد مبدأ يقطع الصلة بين نشاطات الانسان فى الدنيا وبين ما أنزله الله ليقوم الانسان ويعرفه بحدوده وموازينه لتستقيم له هذه النشاطات فتفرز له عزة وذكرا طيبا ومآلا حسنا .

الصلة بين آيات الله فى الآفاق وآياته المنزلة ،

والصلة بين الدنيا والآخرة ،

كلاهما من بين الصلات التى أمر الله بها ، وجعلها ظاهرة فى آيات القرآن المحكمة ،

ومن ثم يكون قطعها افسادا فى الأرض ، ونقضا لمواثيق المسلم مع ربه كما يكون مدخلا الى ضلال كبير ، وتخبط فى فهم آيات القرآن وفهم أمثاله ... مصداقا لقوله تعالى عما يضربه « مثلا » فى القرآن

(... يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا . وما يضل به الا الفاسقين * الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض ، أولئك هم الخاسرون) البقرة ٢٦ ، ٢٧

لايترك القرآن مجالا من مجالات النشاط الانسانى الا ويدخل فيه مبينا وموجها ومرشدا .

ففى مجال العلم ـ مثلا ـ يبين مصدره ، ووسائله أو مدخله ، وأدواته عند الانسان .

مصدر كل علم هو الله ، علم الانسان مالم يعلم ، وعلم آدم الأسماء كلها ، ولايحيطون بشيء من علمه الا بما شاء ..

وسائل العلم أو الطرق التى بها يوصل الله علمه الى الناس ثلاث هى :

١ ــ آيات الله الكونية أو آياته فى الآفاق . يتكلم القرآن عنها فى آيات كثيرة مثل (**ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب**) آل عمران ١٩٠

وآيات الله الكونيــة هى « العلم » بمفهومه الغربى المعاصر ...

ودراسة الكونيات عندهم هى الطريقة الوحيدة للعلم التى يعترفون بها أو يعتمدونها فى منهجهم كما وضعه بيكون ، أحد رواد الفصل بين العلم والدين ، وبين سياسة أمور الدولة والأخلاق ، كما طبقها بنفسه عمليا ، فقد كان فيلسوفا وقاضيا ورجل دولة ورجل علم وحوكم بتهم الرشوة والفساد .

من الأمور العجيبة التى تبين كيد الله فى مقابل كيدهم ، أنه من خلال منهجهم هذا نفسه ، منهج الدراسات الكونية ، يمكن أن يؤثر الله فى الناس فيهديهم الى الحق ، مصداقا لقوله (**سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد**) فصلت ٥٣ .

لاحظ قوله « **وفى أنفسهم** » ــ لقد أصبحوا هم جزءا من التجربة العلمية ــ بالرغم منهم .

٢ ــ من هنا نصل الى المدخل الثانى للعلم ــ وهو آيات الله فى النفس أى ما ينفعل به الانسان فطريا من انشراح أو قلق ، أو اقبال وصدود أو صحة ومرض ــ وهذا هو مفهوم «الهدى» . آيات الله فى النفس موضوع كبير سيلقى منا اهتماما هو به جدير ، ونكتفى هنا بذكر بعض الاشارات اليه مثل :

(**فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء . كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون**) الأنعام ١٢٥ .

(**ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير**) الحج ٨ .

هــذا المدخل الى العــلم ــ ومنه العلم بالله ــ ليس مفتوحا لكل انسان ، فدونه جهاد وعمل ، والتزام بأسلوب حياة وبمواثيق ، ورغبة صادقة فى الوصول ، ومعاناة وقلق وحب ، ومناجاة ودعاء ورجــاء ؛ وصدق طوية واخلاص ، ومعاملات دنيوية ونفسانية وعبادات . انها أمور تشمل كل مكونات الانسان : جسمه وعقله ونفسه وروحه وقلبه ودنياه